(١٦)

أفكار حول تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية

وسنتناول هذه الأفكار التي تدور حول تعليم القراءة والكتابة في أمور ثلاثة:

أولاً : القراءة والكتابة في عالم اليوم :

حينما نتحدث عن تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية فإنما نتحدث عن التعليم في المراحل التعليمية كلها ؛ لأن هذه المراحل تعتمد اعتمادًا كبيرًا على ما سبق تعلمه في المرحلة الابتدائية ، وبصفة خاصة تعلم القراءة والكتابة. لقد أثبتت كثير من البحوث أن فشل المدرسة الابتدائية في تعليم القراءة يعتبر فشلاً في أخطر مهامة من مهامها ، وهي تعليم القراءة والكتابة ؛ لأن القراءة تعتبر الأداة الأساسية للدراسة والتحصيل وتنمية الفكر وبناء الشخصية ، وما عدا القراءة من وسائل إن هي إلا وسائل مساعدة ، بل إن هذه الوسائل لن تكون ذات فعالية إلا إذا بنيت على أساس من الإتقان الجيد لمهارات القراءة ، فعلى سبيل المثال لن يفيد القارئ مستخدم «الشبكة الدولية للمعلومات» منها إلا إذا كان بالفعل قادرًا على القراءة الفعالة المؤثرة ، وإذا كانت القراءة لها هذه الأهمية ؛ فإن الكتابة ترتبط بها ارتباطاً جوهرياً ، حيث إن الكتابة هي المعبرة عن الفهم ، وهي المعبرة عن التفكير ، وهي وسيلة الفرد الأساسية لإظهار معارفه ومشاعره وانطباعاته عن الأشياء ، وإدراكه لها ، ومن ثَمَّ يوجه معظم الاهتمام في المدرسة للصفوف الثلاثة الأولى من المرحلة الابتدائية ، وما محاولات الربط بين القراءة والمواد الدراسية المختلفة في المرحلة الابتدائية إلا محاولة من خبراء المناهج لتأكيد الدور الفعال للقراءة في دراسة المواد المختلفة وفي تحصيلها ؛ لذا لجأ كثير من الخبراء في تقديم المناهج العلمية

في الصفوف الثلاثة الأولى من المرحلة الابتدائية في كتب القراءة ، فنجد مثلاً مفاهيم مثل : الجاذبية ، والمغناطيسية ، والبخر ، والتكثيف . . . إلخ تقدم بصور مبسطة في كتب القراءة ، في شكل الحديث عن هبوط الثمار الناضجة على الأرض ، أو في شكل مرور السحاب في السماء ، وهطول الأمطار ، وعلاقة حرارة الجو بظاهرة البخر . . . إلخ .

ومن ثَمَّ ظهرت كتب كثيرة تحمل عناوين مختلفة تدل كلها على أن اللغة بصفة عامة والقراءة بصفة خاصة ، إنما هي نسيج واحد ومتشابك ، لحمته وسداة القراءة ، التي تحمل كل العلوم والفنون والآداب ، ومن أشهر الكتب التي ظهرت حديثاً في هذا المجال كتاب : «اللغة هي كل المنهج في الصفوف الأولى « Whole Language Across the Curriculum » ومن أجل هذا ظهرت تقسيمات القراءة بحسب المحتوى المقروء ، وهي :

١- القراءة للقراءة . "Developmental Reading"

٢- القراءة للتعلم أو الوظيفة . "Functional Reading"

٣- القراءة للمتعة والتسلية . "Recreation Reading"

والقراءة للتعلم أو القراءة الوظيفية هي التي جعلت كثيرًا من العلماء في مجال علم النفس اللغوي ، وفي مجال علم الاجتماع اللغوي يوجهون النظر إلى فهم عملية القراءة بدلاً من التركيز على طرائق تعليم القراءة ، وعلى سبيل المثال يرى «جود مان Goodman, Kenneth» . لقد كان «جود مان» مهتماً بالعلاقة بين الفكر (Psycbo) واللغة (Linguistics) وقد تأثر في هذا الاتجاه بكل من «بياجيه وفيجو تسكي وديوي» وقد طبق فكرته في هذه في مجال القراءة ، ليبين مدى العلاقة بين الفهم في القراءة ، واللغة ؛ وذلك بأن أجري بحثًا طلب فيه من التلاميذ أن يقرءوا قطعًا مختلفة في مواقف طبيعية في الفصل ، وكي يقيس قدرتهم في القراءة طلب منهم أن : يعيدوا قص القصة التي قرءوها وقام هو بعد أخطائهم في القراءة .

ومن هذين الإجرائين تحلل الأخطاء التي عندهم ، وتعرف أسباب لماذا يترك الأطفال قراءة بعض الحروف أو الكلمات،ولماذا يبدلون ولماذا يضيفون.

لقد أدت بحوث «جودمان» إلى ما يسمى بنموذج «جودمان» للقراءة ، وإلى إنجاز طريقة جديدة لضبط تقويم القراءة «تسمى بتحليل سوء الاستخدام»أو Miscue Analysis وقد صدر كتاب شهير له «جودمان» بعنوان : «الطبيعة النفسية اللغوية لعملية القراءة» وتوصل «جودمان» من خلال دراساته وبحوثه إلى أن القراءة لا تكون فقط بعملية التعرف على الحروف حرفاً بعد الآخر ، بل إنه وجد أن القارئ يقوم بعدة عمليات مختلفة ، وتخمينات متواصلة حتى يُكوِّن المعنى من النص الذي أمامه كما يذكر «جودمان» أن تعداد أخطاء القارئ لا تكون منه قارئًا جيدًا لكن المطلوب في هذا المجال أن تحلل الأخطاء ، وتعرف الأسباب التي وراءها ، ومن ثَمَّ يمكن العمل العلاجي للأخطاء التي يحدثها القارئ ، مثل القفز فوق الكلمات والإبدال والحذف والإضافة .

وتذكر السبعينيات والثمانينيات بكثرة البحوث التي ظهرت متعلقة بجوانب علم النفس اللغوي ودوره في النظر إلى عملية القراءة ، لقد أحدثت هذه البحوث تغييرات جوهرية في النظر إلى مهارة القراءة ، وغيرت كثيراً من المفاهيم التي كان ينظر بها إلى القراءة ، ولعل استقرار مصطلح القراءة كان أهم نتائج هذه الدراسات ، وقد نظر إلى القراءة على أنها عملية فكرية لغوية "Reading is a thought - Language Process" ومواد تعليم القراءة ينبغي أن تكون مواد ذات معنى وفائدة بالغة للمتعلم ، وتتبنى المدخل الكلي في تعليم اللغة وتقديمها .

ويُعنَي بالمدخل الكلي أو "Holistic Approach" في تعليم اللغة الجمع في وقت واحد بين تعليم القراءة والكتابة .

وقد يكون من المهم هنا أن نقدم تعريفًا للقراءة والكتابة في ضوء بحوث علم اللغة النفسي لنبين العلاقة بين هذين الفنتين :

ثانيًا : العلاقة بين القراءة والكتابة :

يرى مدرسو اللغة أن القراءة هي عملية استخراج أو بناء المعنى بالتفاعل مع المكتوب ، وربط الخبرة الحالية بالخبرات السابقة .

هذه العملية وتتكون من أمرين هما :

التمثيل "Assimilation" والتنظيم أو الفرز "Accommodation" فالقارئ أولاً يلتقط ما هو مكتوب ، ويتنبأ بالمعنى أو يأخذ فكرة عامة ثم بعد ذلك يراجع القارئ ما نتنبأ به ليؤكده فإنه يتحرك إلى عينة أخرى من النص المكتوب وإذا رفض القارئ ما يتنبأ به فإنه يكيف أو يعدل تنبؤه ، ثم يستمر بعد ذلك في القراءة في النص المكتوب ، يتصفح ، ثم يتنبأ ، ويؤكد ، ويستمر في عملية القراءة ، ويربط القارئ بين ما يقرأ والمعرفة السابقة ، وعمق الفهم يرتبط أو يحد بنوع تنبؤات أو تفسيرات القارئ ، وبنوع النص المقدم ، وبالمعرفة السابقة . إن عملية القراءة نشاط تفاعلي بين الطفل أو القارئ الذي يتعلم وبين الصفحة المطبوعة التي يحاول جاهدًا أن يخرج منها بالمعنى .

٢ - عملية الكتابة :

إن النظرة إلى الأطفال على أنهم بناة المعنى مما يقرءون ، تنطبق ـ أيضاً ـ على الأطفال في نموهم الكتابي ؛ فالكاتب يختاره الفكرة التي يود أن يعبر عنها ، ويختار الكلمات والرموز المكتوبة التي تحمل هذه الأفكار ، فالكاتب يبني النص اللغوي ويراجعه ليتأكد من أن الأفكار التي أرادها قد عبر عنها بدقة. ولعل من أهم عوامل تحقيق أغراض الكتابة المختلفة داخل الفصل أن يخلو مناخ الدراسة من التهديدات بالفشل ، أو التهديدات بارتكاب مخاطر حين يكتب التلاميذ .

ولعل من الجديد في مجال تعليم الكتابة أن تنمو جنبًا إلى جنب مع تعليم القراءة بدلاً من الانتظار حتى يتقن المتعلم مهارات القراءة .

لقد أصبحت الكتابة نشاطًا أساسيًا في عملية التعلم كلها . فهنا الآن مراكز الكتابة وأنشطة الكتابة المستقلة موجودة بكثرة في كثير من المدارس الابتدائية . وهناك باحثان كبيران في مجال تعليم اللغة هما «ماري كلاوي Marie Clay»، و«دونالد جريقس Donald G» كان لهما دور كبير في تأكيد المعنى الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو أن يسير تعليم الكتابة جنبًا إلى جنب مع تعليم القراءة ، بل إن «ماريا كلاي» ذكرت في دراساتها أنه يمكن أن يبدأ بتعليم الكتابة حتى قبل تعليم القراءة ، وبالنسبة لدور الكتابة في تعليم القراءة ذكرت أن الكتابة المستقلة «Independent Writing» يمكن أن تكون أداة مساعدة بالنسبة لأطفال المدرسة الابتدائية في تعلم المهارات الأساسية للقراءة والكتابة والإنجاز في مواقف وظيفية ذات معنى ، ولعل من أخطر النتائج التي توصل إليها أن الكتابة لا تعلم من خلال ملء كراسات التدريب «Work book»؛ إنها مثل القراءة تعلم من خلال الأنشطة ذات الصلة بالأنشطة الكتابية ذات المعنى . إن العلاقة بين القراءة والكتابة ما تزال مجالا لكثير من الدراسات والبحوث ، ولكن يتبقى أمر مهم وهو أن التلميذ كي يتحرر من الأمية يتأثر بالمفاهيم المتاحة عن القراءة والكتابة وبدورهما في تحصيل الفكر والتعبير عنه .

ومن اللحظة الأولى لتعليم الكتابة على المدرس أن يسأل الأطفال ليكتبوا شيئًا ما عن أنفسهم ، ويقرءوه ، ويمكن ـ أيضاً ـ أن يقوموا برسم ما كتبوه ويمكن ـ أيضاً ـ أن يرسم الأطفال أولاً ما يودون أن يرسموه ، ثم يقومون بعد ذلك بالتعليق على هذه الرسوم ، وقراءة ما يكتب أمر مهم جدًا في المراحل الأولى من تعليم اللغة ؛ إذ أن هذا الإجـراء يساعـد على الفهم أكثر ، ويساعد ـ أيضًا ـ على تقبل الكتابة ، وفي الكتابة ينبغي أن يكون التأكيد في البداية على المعنى ، أو على المحتوى ، وبالتدريج حينما يتعلم التلاميذ أكثر عن الحروف

وعن الكلمات والجمل ، فإن نظرهم يلفت بعد ذلك إلى ميكانيكيات الكتابة ، ومن المهم أن يتبادل الأطفال تعزيزًا فوريًّا على ما يكتبون بصرف النظر عن الصحة والخطأ في الهجاء ونظم التراكيب اللغوية .

كذلك من المهم أن يعرف المعلمون أن الكتابة ليست إنتاجًا ، إنما هي عملية معقدة تتطلب مجموعة من الأنشطة قبل الكتابة وفي أثنائها ، وبعد الكتابة ، كما أن عليهم أن يعرفوا ـ أيضاً ـ أن تقويم الكتابة يتطلب جهدًا فائقًا في تحديد عناصر النص المكتوبة ، وتقدير الدرجة التي تعطي لكل عنصر من هذه العناصر .

إن الكتابة هي المرآة التي تظهر فيها كل عناصر القدرة اللغوية لدى الفرد ، وهي المقياس الذي لا يخطئ أبدًا في تحديد القدرات الفكرية واللغوية للأفراد .

العلاقة بين القراءة والكتابة علاقة جدلية ، تؤثر القدرة القرائية في القدرة على الكتابة ، كما تؤدي الكتابة دورًا مهمًا في تنمية القدرة على القراءة ، ويلحظ هذا جليًّا من البحوث العلمية المختلفة ، ولقد كان التقرير الشهير لمكتب البحث التربوي والتنمية بالولايات المتحدة إشارة واضحة إلى هذا ، عنوان التقرير : «لنكن أمة قارئة» "Becoming a nation of Readers" الذي نشر عام ١٩٨٦م لقد ذكر في التوصيات :

١- إن برنامج الاستعداد لتعليم القراءة في الرياض ينبغي أن يركز على القراءة والكتابة واللغة الشفوية .

٢- ومعلومًا القراءة ينبغي أن يضعوا خطة لتحديد الأهداف .

٣- على الأطفال أن يقضوا وقتاً أطول في القراءة المستقلة .

٤- وعليهم أن يقضوا وقتًا أطول في الكتابة .

٥- وبالعكس عليهم أن يقضوا وقتًا أقل في حل تدريبات الكتب .

وذُكِرَ في هذا التقرير ـ أيضاً ـ : أن البحوث الحديثة ركزت على أهمية النظر إلى العلاقة بين القراءة والكتابة فبعض الباحثين يرون أن العلاقة بين هذين الفنين علاقة عضوية وأنهما عملان يتبادلان التأثير والتأثر Reciprocal وقد أظهرت البحوث أن أنشطة الكتابة متصلة اتصالاً وثيقًا بالقراءة ، ولها تأثير إيجابي على قدرات الفهم في القراءة ، وقد ركزت البحوث في هذا المجال ، مجال العلاقة بين القراءة والكتابة على أن الكتابة بأنشطتها المختلفة تساعد مساعدة فعالية لي فقط في تنمية الفهم في القراءة ، بل تساعد ـ أيضًا ـ على أن تتحول الثروة اللغوية من المستوى السلبي Passive vocvulary إلى ما يسمى بالثروة اللغوية النشطة Active Vocabulary أي أن تصبح الكلمات والتراكيب المستخدمة في الأنشطة اللغوية أكثر من تلك التي تستخدم ـ فقط ـ لمجرد فهم ما يسمع أو يقرأ ، ويساعد هذا بدوره على الطلاقة الفكرية والطلاقة في القراءة . كذلك الطلاقة في الحديث .

لقد أشار «ديفيد بيرسون David Person» إلى ما يسمى بثورة الفهم في القراءة «Comprehension Revolution» هذه الثورة هي في الأساس هدف الانتقال من النظرة التقليدية للقراءة في ضوء النظرية السلوكية إلى النظر إلى القراءة من وجهة نظر علم النفس المعرفي .

ونختم قولنا بالآيات الكريمة : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١).

لقد بدأت الآيات بالقراءة ، التي تعنى النظر والتدبر وتكوين الأفكار وانتهت بالقلم أداة الكتابة ، وبين القراءة والكتابة تنمو الثقافة وتتسع الحضارة ، لقد صدق الله حيث يقول : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣) وما أروع حديث الرسول ﷺ حيث قال : «**اعد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا ولا تكن الخامسة فتهلك**».

ثالثاً : واقع تعليم القراءة والكتابة :

هذا بالنسبة للاتجاهات الحديثة في تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية ، وللعلاقة بينهما ، أما بالنسبة للواقع فإن هناك أدلة كثيرة من الدراسات العلمية ومن الميدان تدل على أننا نعيش مأساة حقيقية ليس فقط بالنسبة لتعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية بالبلاد العربية ، بل بالنسبة لتعليم جميع المواد الدراسية على امتداد المراحل التعليمية المختلفة ، ولكن الخطورة والمأساة في تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية أوضح وأعنف ؛ لأن تعلم المواد الدراسية المختلفة يعتمد على الكفاءة في كلا الفنين ؛ القراءة والكتابة .

لقد ذكر كثير من العلماء والباحثين والمهتمين بالقضايا الاجتماعية والتربويين في الوطن العربي ، ذكر هؤلاء أنهم مشفقون وخائفون على مستقبل هذا الجيل الذي لا يكاد يقرأ أو يكتب بلغته القومية ، التي هي مصدر القوة ، وضمان المستقبل ، وأساس الهوية . من كان يصدق أو يتخيل أن تلميذًا في نهاية المرحلة الإعدادية ، أي بعد دراسة اللغة العربية تسع سنوات لا يكاد يقرأ أو يكتب؟ بل من الذي كان يتخيل أو يتصور أن خريجي الجامعات يخطئ معظمهم في هجاء كثير من الكلمات ، على أنها أصبحت سمة عامة لا يخجل منها أحد أن نخطئ في الحديث باللغة العربية ، وأن نخطئ في الكتابة بها ، علاوة على النظرة الدونية للغة العربية وتراثها والمدافعين عنها .

وهناك عوامل كثيرة أدت إلى ضعف مخرجات تعليمات القراءة والكتابة ، لعل من أخطرها أن المدخلات يشوبها كثير من القصور ويتجلى ذلك ـ غالبًا ـ في :

- ضعف إعداد المعلم .
- ضعف المقررات والمواد التعليمية .
- كثافة الفصول .

- انعدام الأنشطة .

- غياب التقنيات الحديثة .

- اختفاء المكتبات المدرسية تقريبًا .

- الاعتماد على كتاب واحد لجميع الفئات والأعمار والبيئات .

- النقل الآلي .

- عدم توافر الرعاية الصحية والاجتماعية والغذائية للتلاميذ .

والعجيب أن أحدًا لا يحرك ساكنًا ، بل إنا سمعنا من المسئولين عن التعليم في وقت سابق أن كثيرًا من الدول تحاول اللحاق بمصر في مشروعاتها التربوية ، وأن اليونسكو ترى أن التعليم في مصر ارتقى وأصبح نموذجًا يُحتذَى به !!

* * *